الحيوان

في كتاب الاتباع والمزاوجة

للاب انستاس ماري الكرملي

١٣ — الأعنز غير الأنعج

جاء في متن ص ١٨٥ : « أعنز الجبل وكباشهُ » وفي الحاشية اشارة ان الذي ورد في النسخة الخطية : (أنعج) ثم قال الناشران : « ولم نجد هذا الجمع في كتب اللغة » . قلنا : الأعنز لا تقوم مقام الأنعج لان الاعنز جمع عنز وهو الأنثى من الوعول والشاء والظباء (عن المخصص ٨ : ٣٠) وأما الأنعج فجمع نعجة وهي الشاة الجبلي ، وربما سميت الظبية به ، وانها للضائنة (عنهُ ٨ : ٣٠) وأنعُج جمع قياسي لنُعْجة باعتبار الماء حرفاً زائداً . فقد قالوا في جمع شرب ، وثوب ، وقوس ، وسيف ، وعين ، ونفس ، وفلس ، وسطر ، الى ما لا يحصى عده : أشْرُب ، وأثوب ، وأقوس ، وأسيف ، وأعين ، وأنفس ، وأفلس ، وأسطر ؛ ولما كان النحاة واللغويون لم يدوّنوا في كتبهم كل ما نقل عنهم من الجموع المكسرة ، فلا عجب اذا أهمل كثير منها

زد على ذلك ان البغداديين يسمون (البَعَجَ) في عصرنا (نُعَيْج الماء) ، تصغير نعجة واذا جمعوه قالوا أنعج الماء) كأنهم يعودون الى جمعه قبل تصغيره وهو غريب

١٤ — الأرواء لم ترد

ورد في ص ١٨٥ : « اعنز الجبل وكباشه وهي الأرواء » . قلنا : الأرواء لم ترد في اللغة ، والمشهور ان جمع الأُرويّة بالضم والكسر : الأُرويّ والأُرَى ، ولم يسمع عنهم غير هذين الجمعين والقياس لا يجيزه

١٥ — التيائل

جاءت التَيائل هكذا بتاءين مثناتين . والصواب التَيائل والتيائل لان مفرد التيائل

بناء مثلثة في الاول ، وبناء مثناة في الثاني ، أو التيثل ، اي بناء مثناة في الأول وبناء مثلثة في الثاني (راجع المخصص ٨ : ٣٦)

١٦ — القاسّ

وذكر المؤلف العقاب في ص ١٨٨ ثم قال : « واما الطريح فيقيّض الله له طائراً يقال له (قاس) فيضمّهُ اليهِ ولا يدعهُ يهلك ، ولكنهُ يقوّيهِ ويربيهِ مع أفراخه »

قلنا : هذه الحكاية مبنية على أنّ بين العقبان عقاباً اسمها (كاسر العظام او المكلّفة) او (القاسّ) وذلك ان القاسّ اسم فاعل من قسّ ما على العظم : اذا أكلّ لحمهُ وامتخّهُ . وهذا الطائر ذكره الجاحظ — على ما قال الدميري في مادة (المكلّفة) وهذا نص كلامهِ : «لما كانت العقاب سيئة الخلق ، تبيض ثلاث بيضات ، تخرج فراخها ، فتلقي واحداً منها ، فيأخذه هذا الطائر الذي يتكلف به ، فيل له (المكلّفة) ويسمّى (كاسر العظام) فيربيه كما تقدم » اه

ولهذا الطائر اسماء كثيرة ذكرناها سابقاً في مقالة في مجلة المشرق . ومن اسمائهِ غير هذه الثلاثة البُلّح ، والبِلت ، والهُمّاء ، والعَوّف والقمعة ، والسّتَل والعيّنة . وباللاتينية Ossifraga أو Ossifragus وعند علماء الطير Gypaetus Barbatus وبالفرنسية Orfraie وبالانكليزية Osprey أو Lammergeier

وبعد أن أوضحنا معنى القاسّ ، يحسن بنا ان نقول : وقع نقص في عبارة الإمتاع وهو ما يأتي ، تزاد قبل قوله : « واما الطريح.... .

« والعقاب تبيض ثلاث بيضات في الغالب وتحضنها ثلاثين يوماً ، فاذا خرجت فراخها ، ألقت واحداً منها ، لانهُ يثقل عليها طعم الثلاثة ، وذلك لقلة صبرها ، واما الطريح فيقيّض الله له ... »

١٧ — البقّ والبعوض

ومما يجب ان ينتبه له (البق) . فهذه اللفظة تعني في لغة المصريين حشرة السُرُر التنة الرائحة التي تمتصّ الدم امتصاصاً شديداً . وأما العرب (فالبقّ) عندهم البعوض الكبير . فكان يحسن بالناشرين أن ينبهوا على ان (البقّ) هذا هو البعوض اي Mosquito بالانكليزية لا الضبج أو الكنان أو القمافص اي Bug

١٨ — البيضاني

قال أبو حيان في ص ١٩٠ (البيضاني) وفي الحاشية : « كذا ورد هذا اللفظ في الاصل.

ولم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة والكتب المؤلفة في الحيوان » انتهى

قلنا : ذكر البيضاني ابن بهلول في معجمه الكبير الأرمي العربي قال في (فوقنوس) هو طائر أبيض: «البيضاني او القنفوس ـ القوق» قلنا : والكلمة الأرمية من اليونانية Kukons

وقال صاحب بحر الجواهر: «البيضانيات : هي طيور مثل الاوز، والبط ، والقلولى ، وهي جمع منسوب الى البيض جمع الابيض » اه . فالبيضاني — ويقال له القفنس ، والقفنوس والقوق ، والمصريون يسمونهُ التمّ ، وأهل سورية يسمونهُ الاوز العراقي ، وهي تسمية كاذبة لا حقيقة لها ، لان العراقيين لا يعرفونهُ في جسمه ولا في اسمه ، هو المسمى بالانكليزية Swan

١٩٠ـ الأبغث

وذكر أبو حيان الأبغث (ص ١٩٠) بعد البيضانيّ فقال : « والأبغث : هذا طائر يحبُّ ولده ، فاذا تحركت فراخهُ ودوجت ، ضربت وجههُ بأجنحتها ، فيدعوهُ الحنكُ والغضب المطبوعان فيه الى قتلها ، فاذا ماتت ، اكتأب عليها الابوان ، وأقاما عليها شبه المأتم ثلاثة أيام ، ثم ان الأم في اليوم الثالث تشقّ جنبها حتى يقطر دمها على تلك الفراخ ، فيصير ذلك نشوراً لها بعد موتها». انتهى

وعلق الناشران على هذا الاسم قائلين : « وردت هذه الكلمة (الأبغث) في الأصل مهملة الحروف من النقط . والصواب اثباتها على هذا الوجه . والأبغث : طائر من طير الماء كلون الرماد ، طويل العنق . وسمي أبغث لبغثته ، وهي بياض الى الخضرة ، وهو من شرار الطير » انتهى

ما ذكره أبو حيان مشهور عن الطائر المعروف عند كثيرين بالبجع ، والحوصل ، والقوق والسقّاء ، وجمل الماء ، الى أسماء أخر ، وبالفرنسية Pélican . وهذه الرواية لم يختلقها أبو حيان من نفسه ، فأول من ذكرها إمام من أئمة قديمي النصارى اسمهُ القديس أوغسطينس البوني الافريقي المتوفى سنة ٤٣٠ للميلاد . فقد قال في شرحه للآية الثامنة من المزمور ١٠١ ما هذا نقله بحروفه : « يَقتلُ هذا الطائر فراخهُ بنقره إياها ، ثم يحزن عليها في عشّه ثلاثة أيام ، فاذا تمت المدة ، تجرح الأم نفسها جرحاً بليغاً ، وتريق من دمها على فراخها ، فتعود حالاً الى النشور» (راجع معجم الثوراة لصاحبه ف . ڤيكورو ٢٧:٥ مادة Pélican

قلنا : وهذه حكاية موضوعة لا حقيقة لها سوى ظاهرها

والأبغث لم يذكره أحد من اللغويين بهذا المعنى . والذي ذكره اللغويون هو بمعنى آخر لا يصدق إلاّ على ما يسمى بالفرنسية Cormoran وبلغة العلم Phalacrocorax Carbo .

وقد صرّح بهذا المعنى صاحب الاوقيانوس قال : واسم الابغث بالتركية قره بتاق . فهذا لا يُبقي ريباً في أنهُ الابغث على ما وصفهُ العرب الاقدمون . لكن الظاهر ان آخرين أطلقوه أيضاً على الحوصل . ودليلنا على ذلك أبو الحسن ابن بهلول ، وهو من كبار اللغويين الاقدمين كان حيًّا في سنة ٩٦٣ الميلاد (٣٥٢ هـ) فهو من أهل المائة الرابعة للهجرة ، ومعاصر لأبي حيان ، وكان أيضاً في بغداد فقد ذكر للكلمة (قاقا) الارمية أي الحَوصل ثلاثة ألفاظ وهي: القيق [القوق] والابغث والبيضاني

والظاهر ان ناشيرَيّ كتاب الإمتاع التالث عليهم أمر الابغث اذ قالوا : « وهو من شرار الطير » وهذا لم يقلهُ أحد قبلهما ، اذ ظنّا ان الابغث هو البُغاث وهذا وهمٌ كبير . نعم ان البغاث من شرار الطير ، وأما الأبغث ، الذي عدّه من طير الماء ، فلا يكون من شرار الطير البتة

٢٠ — الشمسية لا السمسة

ومن غريب ما جاء مصحفاً من أسماء الحيوان في هذا السفر ما ورد في ص ١٩٢ وهو هذا بنصهِ : « السِمْسِمة ، وهي حية حمراء براقة ، اذا كبرت وأصابها وجع العين وكدت ، التمست حائطاً مقابل المشرق ، فاذا تبدّت الشمس احدّت اليها بصرها قدر ساعة . فاذا دخل شعاع الشمس عينها ، كشط عنها العمى والاظلام ، ولا تزال تفعل ذلك سبعة أيام حتى يتجدد بصرها تامًّا » اه

قلنا : لم ترد السمسمة في كتب اللغة ، ولا في كتب الاحياء بهذا المعنى . نعم جاء في القاموس : السمسم : حية . وزاد في التاج : أو دويبّة تشبهها . وفي كتاب العين : السمسم يقال لدويبة على خلقة الأكلة حمراء هي السمسة . وقال أبو منصور في التهذيب : هي السمسة وقد رأيتها في البادية ، وهي تلسع فتؤلم اذا لسعت . وقال أبو خيرة : هي السامس وهي هنات تكون بالبصرة يعضضنَ عضًّا شديداً ، لهنَّ رؤوس فيها طول الى الحمرة ألوانها» اه.

ولما قال في القاموس : السمسم حية ، أي بياء مثناة من تحت ففي أغلب النسخ الخطية القديمة الموجودة عندنا : السمسم حية بياء موحدة تحتية اشارة الى انها حية السمسم . وفي معيار اللغة : « السمسم ... حية بالمثناة التحتية . وفي بعض النسخ : حية بالموحدة » انتهى. والارجح عندنا انها حية ، بالياء الموحدة التحتية . والاّ فليست السمسمة بحية اي بثعبان اعلى حشرة صغيرة كالنملة الحمراء تلسع لسعاً مؤلماً ولا سيما في أيام الربيع في ابان المزاوجة اما الحية الحمراء فاسمها (الشمسية) كأنها منسوبة الى الشمس ، هذا الجرم النيّر الذي يضيئنا

في النهار. والدليل على ذلك ان الدميري ذكرها في كتابه (حياة الحيوان الكبرى وذلك في طبعة بولاق ١ : ٦٤) وهذا نصها بحروفه: «الشمسية. قال أبو حيان التوحيدي: إنها حية حمراء، برّاقة، إذا كبرت وأصابها وجع العين وضعت، التفتت حائطاً يقابل الشرق، فإذا طلعت الشمس، احدقت اليها ببصرها قدر ساعة، فإذا دخل شعاع الشمس عينها، كشط عنها العمى والإظلام، ولا تزال كذلك سبعة أيام، حتى تجد بصرها تامًّا، وغيرها من الحيّات اذا عمي ايضاً طلب شجر الرازيانج الأخضر، فيكتحل به، فيبرأ كما تقدم»

***

فهذه شهادة واضحة لا شبهة فيها في ان الحية التي يجري عليها الكلام هي الشمسية والنصّ بيّن لا يقبل شكًّا ولا شبهة. وعندي من كتاب الحيوان للدميري خمس نسخ، وكلها تذكر هذه العبارة وكلها في باب الشين، بحيث لا يمكن ان يرتاب انسان في ما نقلناه

زد على ذلك انك ترى اختلافاً في بعض ألفاظ هذه الرواية، وما جاء من عبارة الدميري أصحّ وأفصح وإن كانت تلك الكلمات قليلات

ويجب ان يلاحظ ان اسم هذه الحية باليونانية هو Hélicops فظنها بعضهم مركبة من كلمتين من Hélios أي شمس و Opseis أي نظرٌ ومرأى ولهذا سماها الشمسية متابعة للاسم اليوناني. وأما المعنى الصحيح فهو ان الكلمة منحوتة من Helix, Ekos أي دائرة لا شمس و Opseis أي نظرٌ. فيكون معناها المستديرة العين

***

ودونك الآن وصفها العلمي متابعة لعلماء العصر: الشمسية من الحيات التي لا تؤذي، من جنس الحنش، وأكثر ما تكون في الأرجاء الحارة من كرة الأرض. وقد عرف العلماء من أنواعها نحواً من اثني عشر وكلها غير مؤذية. وقد يبلغ طول الواحدة متراً، وجلدها أحمر اللون الا انه أجلى من تحت، ولها ذنب طويل دقيق الطرف والعين الواحدة قريبة من العين الآخرة، وهما في أعلى الرأس، وجسمها مغطى بحراشف ملززة، والشمسية كثيراً ما تجاور الماء

ومن الغريب ان معاجمنا من قديمة وحديثة، لم تذكر الشمسية بهذا المعنى. ولولا اشتغالنا بجمع شتات الالفاظ من مختلف التصانيف لما اهتدينا اليها. فان معجمنا الكبير الموسوم بالمساعد هو الذي دلّنا على ضالتنا المنشودة مع اسمها الافرنجي

٢١ — العَتَّام

وقال ابو حيان في ص ١٩٢ : « الأفعى تُزاوج دابة بحرية ، تأتي الأفعى شفير البحر فتصوت ، وصوتها مُهيِّجٌ لتلك الدابة البحرية » اهـ .

قلنا : واسم هذه الدابة (العتام) وزان سحاب . قال في تاج العروس : العتام : سمك ، وقيل : حية تسكن البحر . ويقال انهُ يأتي الاسود من الحيات من البرّ ، فيصفر على الشط ، فتخرج اليهِ العتام ، فيتلاويان ، ثم يفترقان فيذهب كلٌّ الى منزله . هذا في البر وهذا في البحر » انتهى

٢٢ — الزامور

نقل الدميري عن التوحيدي ما جاء في الزامور ، وكان يحسن بالناشرين أن يعارضا رواية مخطوطهما بالكتاب المطبوع للدميري . وصحيح رواية الزامور هي براءين اي (رامور) وهو من اللاتينية Remora ومعناها (مؤخر ومانع وعائق) لان الرومان كانوا يزعمون ان هذا الحوت اذا تصدى لسفينة منعها من السير في وجهها. وقد ذكرها من كتابهم بلوتس Plautus ولوقيليوس Lucilius وكان كلاهما قبل المسيح بنحو مائتي سنة . وسبب تعريب العرب لهذه الكلمة على هذا الوجه أنهم لم يستسيغوا مجاورة ثلاثة أحرف ذلك ، فنقطوا الأولى ، خفّ اللفظ ، وقرب من أصل عربي معهود وهو الزمر . وإلاّ فلا زمر في تلك السمكة

ونظن ان بعض السلف شعر بعجمة هذا الأصل فمال الى لفظ عربي التجار ، فسمى هذه السمكة (الشدك) [1] ، من ادرك به ادّ كاً ولدّ كاً ، أي لزق به . وقد وردت في كتاب عجائب المخلوقات ، وغرائب الموجودات ، للقزويني ، المتوفى سنة ٦٨٢ هـ . فقد قال في فصل في بعض حيوانات بحر ازنج ما هذا نصه : « ومنها السمكة المعروفة بالبال . . . . فاذا

---

(١) وردت هذه الكلمة مصحفة بصور شتى في طبعة فردينند وستنفلد في غوتنغن سنة ١٨٤٨ ص١٢٣ قال الناشر انها وردت في نسخة (الشك) ، وفي أخرى (السك) ، وفي ثالثة (البسك) ، وفي رابعة (الشك) وفي خامسة (الشك) . أما نحن فكانت نسختنا مجودة قديمة منقولة في سنة ٧٧٦ هـ على نسخة المؤلف ، ومضبوطة بفتح اللام ، وكسر الدال ، وفي الآخر كاف ، كأن معناه (الحوت الذي يلتصق) بعدوه . وهو عربي . وأما سائر النقات فليست فصيحة . وأما عجائب المخلوقات المطبوع في مصر فقد اختلفت ألفاظه باختلاف طبعاته فلا يعتمد عليها

بَعَثَ هذه السمكة ، بَعَثَ الله تعالى اليها سمكة نحو الذراع تدعى (الدلك) ، تلتصق بأذنها ، فلا يكون لها منها خلاص ، فتطلب قعر البحر ، وتضرب بنفسها حتى تموت ... »

فلا جرم أن ما سمّاه التوحيدي (الزامور) وتبعه فيها الدميري هو نفس الحوت الذي سماه القزويني (الدلك) وهذه أفصح عربية ، والزامور معربة ، وكلتاهما يؤخذ به

٢٣ — نظرة عامة في خرافات هذا الكتاب

هذا ما بدا لنا في مطاوي مطالعتنا لهذا الجزء الأول من كتاب الامتاع ، لأبي حيان التوحيدي . وهناك ملاحظات لا بدّ من ابدائها في ما دوّنه بأمور تتعلق ببعض الحيوان ولا يمكن ان تبقى على تلك الرواية ، بل لابدّ من تعليق عبارات عليها لكي لا ينخدع بها القارىء في هذا العصر ، كقول المؤلف في ص ١٧٤ « في البحر حوت يقال له البوس يتولد من الصاعقة اذا كانت في البحر » . قلنا هذا الحوت يتولّد من بيض السمك كسائر السمك ، وليس من الصاعقة ؛ ولو فرضنا انهُ يتولد من الصاعقة فمن يستطيع ان يتحقق هذا بنفسه ؟

***

وما ذكره عن كلب الماء في ص ١٧٥ غير صحيح . وقوله في ص ١٧٨ « ان البقرة تلد عجلها ميتاً فلا تزال تحرسهُ حتى يأتي أبوه اليوم الثالث فينفخ في منخره فيحييهُ » أكذوبة أخرى . ومن تلك الخرافات التي لا يقبلها عقل انسان قوله في ص ١٨٠ أن الضبع تصير مرة ضبعاً ذكراً ومرة انثى . وكذلك ما ذكره عن حياة السمندل في النار (ص ١٨٢) ، وعن صيد الحريش (ص ١٨٤) ، وعن ان النحل يلد من غير لقاح (ص ١٩١) ، وان الاناث من بنات عِرس انما تلقح من افواهها ، وتلد من آذانها (ص ١٩٢) ، وان البقّ والبعوض لا تتاح لها وانما تسجل من عفن الماء ووسخه ونتنه (ص ١٩٣) . فهذه الرّطازات وأمثالها كان يجب ان يعلّق عليها في الحاشية عبارة صغيرة كقولك مثلاً : هذا زعم لاحقيقة له . أو : هذا رأي كان معروفاً عند الاقدمين غير قائم على حق . أو : العلم الصادق لا يثبت هذا الرأي . أو ما يشبه هذه العبارات ، على حدّ ما يفعل علماء الغرب عند نشر مثل هذه الكتب ، او هذه الآراء التي لا قوام لها ، بل هي أقوال مبنية على أوهام

***

هذا ما بدا لنا ، ولعل وهمنا أكثر من صوابنا